Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (5), Issue (4): 30 Mar 2021
P: 1 - 15

AJSRP
ISSN: 2522-3380

مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (5)، العدد (4): 30 مارس 2021م
ص: 1 - 15

Al-Jahiz Criticism Standards of Elocution

Nasreddin Ibrahim Hassan

Haitham Ahmed Alsalmi

Faculty of Islamic Revealed Knowledge || International Islamic University Malaysia || IIUM

Abstract: Elocution has originated in ancient times and developed as a unique form of art compared to other realms of discourse. It has developed over time beyond the simple objective of self-expression to a means of persuasion and motivation of public audiences. Parallel to the expansion of urbanization, the birth of elocution was necessary as it played a central role to encompass many aspects of life and a wide variety of domains. From the divergent opinions that call for the unity of thought, to the persuasion in public forums or as a crucial tool to influence the audience. If we consider the previous faiths and beliefs (language science), we can easily understand the necessity of elocution as a distinctive art.

In fact, elocution is a product of intellectual refinement and social progress. It commonly flourished throughout times in public settings and used for a specific purpose and certain situations. It has gained distinct style and elements up until documentation was made possible. It has, since then, evolved significantly from its early beginnings to become a symbol of high status for the civilized and sophisticated nations.

In this study we will try to (distinguish patterns in language and its uses) shed light on elocution as a subject and form of art without tedious elaboration or distorting abbreviation. We will study the elocution within Al-Jahiz (159-255H) works of literature. The motive for probing this brilliant artist is primarily due to his encyclopedic knowledge. He was a seasoned intellect that enables the reader to navigate different Arab and western cultures while communicating and comparing between the Arab and other nations' works of literature.

The importance of this study, which adopted the descriptive method and content analysis, lies in the fact that it represents a significant addition to the Arabic prose by showcasing the artistic value and the beautiful styles in his discourse and the elements of such discourse that allow the interested researchers to tackle its subjects and diversity. More important, of course, is to bring to the spotlight this one-of-a-kind artist and prose writer standards with regard to Arabic elocution.

Among the most prominent findings of the study is that the foundations on which the art of elocution is based Al-Jahiz are five pillars, which are (typography, narration, eloquence, pronouncement).

Keywords: Linguistic Patterns, Elocution, Influence on Speakers, Elements of Public Speaking, Artistic Value.

المعايير النقدية للخطابة عند الجاحظ

نصر الدين إبراهيم أحمد حسن

هيثم بن أحمد بن سليمان السالمي

كلية معارف الوحي || الجامعة الإسلامية العالمية || ماليزيا

الملخص: رافقت المحادثات الإنسان منذ وجوده على التحقيق، وقد تميزت الخطابة بحقيقتها عن مطلق المحادثة العادية إلى فن، واختصت بالجماهير دون الأفراد، وقصد بها التأثير والاستمالة، وليس مجرد التعبير عما في النفس، وكانت نشأتها استجابة لما دعت إليه

حاجة الناس، بعد أن توسعت ميادين الحياة وتعددت اتجاهاتها، وما صحبها من اختلافات تدعو إلى توحيد الفكر، أو الإقناع برأي، والتأثير في المخاطبين، وإذا لاحظنا الأديان والرسالات السابقة، أدركنا مقتضيات وجودها ونشأتها كفن متميز.

فهي إذاً وليدة رقي فكري، وتقدم اجتماعي، قضت زمنا حتى ارتفعت وتميزت أولا بالجماهير، وثانيا اختصت بأغراض خاصة ومواقف معينة، وثالثا اتسمت بأسلوب وهيئة، حتى وصلت إلى عصور التدوين على الحالة التي وصلت إليها، من حقيقة مميزة عن غيرها، ولم تزل في رقي حتى أصبحت عنوانا على منزلة الأمم ومكانتها.

وسنحاول في الاسطر القادمة (تمييز الأنماط في اللغة واستعمالاتها)، عندما نتحدث عن علم الخطابة الذي يعد جزء من (فنّ الإقناع)، بلا استطراد ممل أو إيجاز مخل، ونبدأ بدراستها أهم مقوماتها، عند الأديب الجاحظ (159-255هـ)، ولعل أبرز ما دفعني لدراسة أدب هذه الشخصية الفّذة، هو ما تمتع به الجاحظ من فكر موسوعي، لا يرتبط بحدود معينه ولا يقف عند قيود محددة، إذ إنه واسع الثقافة، يطوف بالقارئ في ثقافات متعددة عربية وغير غربية، ناقلا ومقارنا بين أدبنا وآدب تلك الأمم الأخرى.

وتكمن أهمية هذه الدراسة التي اعتمدت (المنهج الوصفي، وتحليل المضمون)، في الإضافة النوعية التي ستقدمها للنثر العربي، ذلك من خلال إبراز القيمة الفنية، والأساليب الجمالية التي ظهرت في الخطب، والوقوف على مقومات الخطبة، والتي يمكّن للباحثين المهتمين بهذا الجنس الأدبي من دراسة قضاياه وتنوعها، كذلك الوقوف على جانب مهم؛ وهو معرفة مقاييس أديب بحجم الجاحظ، ومعاييره في قراءته للخطابة العربية. ومن أبرز ما خلصت إليه الدراسة، أن الأسس التي يرتكز عليها فن الخطابة عند الجاحظ خمسة أشياء، هي: (الطبع – الرواية- الفصاحة- تخير اللفظ).

الكلمات المفتاحية: الأنماط اللغوية، علم البيان، التأثير في المخاطبين، مقومات الخطابة، القيمة الفنية.

مقدمة.

تعد الخطابة لونا من ألوان الكلمة وشكلا من أشكال التعبير، لها ما يميزها عن غيرها من ألوان الكلمة المكتوبة أو المسموعة، وتتفرد الخطابة بخصائص تميزها عن فنون النثر الأخرى، كالشعر أو النثر الفني، وإن كانت لا تخلو جنباتها من شيء من النثر الفني أو الشعر، وعلى بعض الحالات النفسية التي يتعرض لها الكاتب في مقالة، والخطابة تختلف عن الشعر الموزون المقفى، الذي يقوم بنيانه على الخيال والعاطفة والمبالغة.

اما الخطابة فإنها تتناول المسائل الجادة والواقعية، وتقوم على الحقائق الملموسة وتجنح إلى استعمال الدليل، والاستعانة بالحجة والمنطق كعناصر أساسية في تركيبها، كما أن عنصر الإقناع والاستمالة والانقياد لفكرة الخطيب، التي يدعو إليها أثر واضح في تمايزها عن الاجناس الأدبية الأخرى.

وللخطابة خصائص عامة تشترك فيها كل أنواع الخطب، منها":

- تعتمد الخطابة على ثلاثة عناصر، هي بمنزلة الينابيع التي تمدها بماء الحياة، أولها المنطق والحجة، وثانيها أقوال الحكماء والحوادث المنقولة عن ثقة، والاخبار المروية عن حكيم أو عظيم نصدق عند الناس.

وثالثها صنعة الخطيب، الذي يمزج كل هذا بصورة من براعة الفنان، وعاطفة الانسان وخيال الشاعر، والذي يعمد في حالات كثيرة إلى الاكثار من استعمال المنطق، إن كان من يخاطبهم أقواما قد غلبت عليهم الحياة الفكرية والعقلية، وقد يعمد إلى أقوال الحكماء وكثير من الظنيات؛ إذا كان من يخطبهم يقدسون هؤلاء الحكماء أو الزعماء أو القادة، وقد يكثر الخطيب من استعمال العاطفة؛ إذا كان يخطب للعوام، أو من يميلون إلى سماع هذا اللون وتؤثر عليهم العاطفة.

- وضوح العبارة في الخطبة، وظهور معانيها بحيث يكون الغرض الذي يهدف إليه الخطيب مفهوما.
- الاسلوب القصصي الذي يستعين به الخطيب، يكون له موقعه من حيث التأثير والافادة، بشرط أن لا تكون القصة طويلة تذهب بذهن السامع عن الغرض الاصلي.
- مقامات الخطبة متعددة، فيجب أن تكون عباراتها بحسب المقام، ويجب أن يكون حال الخطيب كذلك.

- الخطبة أقدر من الشعر على الإقناع، لأنها لا تعتمد على تكلف الوافي والأوزان، وهي مع ذلك تتمتع بجزالة اللفظ وحسن التعبير والعاطفة، والخطبة يستطيع إجادتها جموع كثيرة وفئات مختلفة، بخلاف الشعر فإنه يستطيع إجادته إلا موهوب " (الواعي، 1999م، ص56).

ومع تشابه الخطابة في هذه الخصائص، إلا أنها تعددت اتجاهاتها وتنوعت فنونها، لتواكب حاجات الأمم والشعوب، وتساير اهتماماتها المختلفة وشؤونها الضرورية، التي لا غنى عنها في الحياة والمجتمعات، والتي درج عليها عرفها وعاداتها في المجتمع.

وقد كان الجاحظ أديبا عربيا اتخذ المجتمع مادة لقلمه، فإذا الحياة الاجتماعية في عصره على تنوعها، توحي إليه جلّ نتاجه من نقد إلى وصف وتحليل واستقراء.

لقد نظر في بيئته نظرة تأثر على وضعه الإنساني، وهو المعتزلي المفعوم " بأصول مذهبه، ومدافع حازم عن بني العباس، وأديب رام التوجيه والنقد، بقدر ما رام الوصف للوصف" (جبر، د ت، 84).

ولا شك أن الجاحظ قد أرسى النقد الأدبي على قواعد ثابته، ووضع له أحكاما عادلة، وهو بذلك من ائمة النقد، والسابقين إلى وضع أصوله ومناهجه ومختلف مذهبه وطرقه (خفاجي، 1982م، 239).

وفي هذا المبحث سنتحدث عن نقد الجاحظ للخطابة العربية، من خلال توضيح المقومات التي وضعها لهذا الفن، والأحكام النقدية التي تناولها في نقده لخطب البيان والتبيين.

مشكلة البحث:

تتبلور مشكلة البحث في:

- ما المعايير النقدية التي وضعها الجاحظ لفن الخطبة في كتاب البيان والتبيين.

أسئلة البحث:

- ما أبرز المعايير النقدية التي ذكرها الجاحظ للخطب، في كتاب البيان والتبيين؟
- ما مقومات الخطابة عند الجاحظ؟

أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة، إلى الوقوف على نقد الجاحظ للخطابة العربية في كتاب البيان والتبيين، حيث يعدُ نقده تأصيلا لهذا الفنّ، الذي تميز عند الشعوب، إلا أن الجاحظ أختص بخطابة العرب، ودافع عنها أمام تيارات الشعوبية وغيرها ممن حاولوا درس معالم هذا الأدب الأصيل.

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذه الدراسة، في الإضافة النوعية التي ستقدمها للنثر العربي، من خلال إبراز القيمة الفنية والأساليب الجمالية التي ظهرت في الخطب، والوقوف على مقومات الخطبة، والتي يمكّن للباحثين المهتمين بهذا الجنس الأدبي من دراسة قضاياه وتنوعها، كذلك الوقوف على جانب مهم وهو معرفة مقاييس أديب بحجم الجاحظ، ومعاييره في قراءته للخطابة العربية.

منهجية البحث:

اعتمدت هذه الدراسة المنهج الوصفي، وتحليل المضمون فنياً.

الدراسات السابقة:

تعد الخطابة في أدبنا العربي من أهم فنون الأدب، وتمثل مرحلة مهمة من مراحل تطور هذا اللون الفني في الأدب العربي، ولذا درس هذا اللون عدد من الباحثين، وفيما يلي عرض لبعض الدراسات التي استفدت منها:

- **تناول ضيف (1963م)** في كتابه النثر في العصر الإسلامي موضوع الخطابة في العصر الراشدي وكيف أرتقت، بإيجاز شديد.

وقد أفادت الدراسة من هذا الكتاب في التعرف على بعض خطب الخلفاء الراشدين، وكيف ساهمت هذه الخطب في المواضع التي قيلت فيها بارتقاء الخطابة.

- **أما صفوت (1974م)**، في كتابه " جمهرة خطب العرب" فقد تعرض إلى خطب الجاهلية، وخطب صدر الإسلام، وخطب العصر العباسي الأول وخطب متفرقة، وأفادت الدراسة من هذا الكتاب معرفة أنواع الخطب في العصور المختلفة ومقارنتها بخطب البيان والتبيين، كذلك التعرف على ملامح تطور الخطابة في الأدب العربي.
- **عوض الحوفي (1977م)** في كتابة " فن الخطابة"، لمفهوم الخطابة وأسسها وموضوعاتها، رابطا بينها وبين الأسطورة والتاريخ، وأفادت الدراسة من هذا الكتاب، التعرف إلى أهم الخطب التي وردت في عصر صدر الإسلام، والتعرض لها بأسلوب وصفي تحليلي.
- **وتناول أبو زهرة (1980م)**، موضوع "الخطابة" في الأدب العربي القديم، وأنواع الخطب في العصور الأوربية، تحدث فيه عن أصول الخطابة، وعرض نماذج من نصوص الخطب عند العرب، امتدت من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي مرورا بالخطابة في العصر الراشدي ولكن بإيجاز شديد، وقد أفادت هذه الدراسة من الكتاب التعرف إلى ملامح تطور الخطابة في الأدب العربي.
- **فوزي السيد (2005م)**، في كتاب " المقاييس البلاغية عند الجاحظ"، بسط الحديث عن فكرة البيان في ذهن الجاحظ، والمقاييس البلاغية التي تبعثرت في مصنفات الجاحظ ولم يضف إليها المتأخرون شيئا، وهي قواعد وأسس قام عليها التأليف البلاغي بعده، وأفادت هذه الدراسة في معرفة هذه المقاييس التي من خلالها نلتمس آراء الجاحظ البلاغية بسهولة ويسر، فكانت الاستفادة من هذه الآراء أعم وأنفع.
- **أما عمر حسن أبو غليون (2008م)**، في كتابه" النقد الأدبي في مؤلفات الجاحظ"، وهو عبارة عن رسالة ماجستير بجامعة مؤتة، وهدفت هذه الدراسة؛ إلى التعرف على جانب من جوانب النقد الأدبي الذي اضطلع به الأديب أبو عثمان الجاحظ، وذلك من خلال التعرف على الآراء النقدية الكثيرة التي أوردها في اثناء مؤلفاته الخصبة، وأفادت هذه الدراسة في الكشف عن منهج الجاحظ في النقد الأدبي، من خلال تعريفه للبلاغة، والحديث عن قضية اللفظ والمعنى.
- **غازي طليمات وعرفان الأشقر (2010م)**، في كتابهما (النثر في العصر الأموي)، الذي حوى بين دفتيه ستة عشر بابا، أهمها باب العوامل التي عملت على ازدهار النثر عامة، وباب تكلم عن الخطابة في العصر الأموي، وأفادت منه الدراسة في معرفة أسباب ازدهار الخطابة في ذلك العصر، كذلك سبب بروز الخطابة السياسية وما صاحبها من التحزبات السياسية، وتقسيم الخطابة عند النقاد.

المعايير النقدية للخطابة عند الجاحظ:

كان الجاحظ أديبا عربيا اتخذ المجتمع مادة لقلمه، فإذا الحياة الاجتماعية في عصره، على تنوعها توحي إليه جلّ نتاجه من نقد إلى وصف وتحليل واستقراء.

لقد نظر إلى بيئته نظرة تأثر على وضعه الانساني، وهو المعتزلي المفعوم " بأصول مذهبه، ومدافع حازم عن بني العباس، وأديب رام التوجيه والنقد، بقدر ما رام الوصف للوصف" (جميل، د ت، 84).

ولا شك أن الجاحظ قد أرسى النقد الأدبي على قواعد ثابته، ووصع له أحكاما عادلة، وكان يحكم الذوق أولا وأخيرا في كل شيء، وهو بذلك من ائمة النقد، والسابقين إلى وضع أصوله ومناهجه، ومختلف مذهبه وطرقه (خفاجي، 1982م، 239).

وفي هذا الدراسة سنتحدث عن نقد الجاحظ للخطابة العربية، موضحين المقومات التي وضعها لهذا الفن، من خلال نقده لخطب كتاب "البيان والتبيين".

أولا: مقومات الخطابة.

إن أبرز ما يذكره الجاحظ من مقومات الخطابة، والأسس التي يرتكز أليها هذا الفن خمسة أشياء هي: (الطبع – الرواية – الفصاحة – تخير اللفظ)، وقد جاءت مجموعة في مقولة مشهورة ذكرها في بيانه وهي لأبي داود بن حريز: " رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير اللفظ" (الجاحظ، 1948م، 50: 1).

أ- الطبع:

الطبع والطبيعة: الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان (ابن دريد، 1987م، 375: 1).

وخص الطبع بوصفه مصطلحا نقديا عند العرب، في بدايات الحركة النقدية التي ارتبطت بالشعر، وهي تعني عندهم: الموهبة والقدرة على فن القول نظما أو نثرا.

ولما كانت أعمالهم النقدية بادئ ذي بدء قد ارتبطت بفن النظم، كان هذا المصطلح متعلقا بالشعر والشعراء أولا، لذلك شبه ابن رشيق بيت الشعر ببيت البناء فقال: " والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية: قراره الطبع، وسمكه الرواية، ودعائمه العلم، وبابه الدربة، وساكنه المعنى..." (ابن رشيق، 1981م، 121: 1).

ويشترط أبو عثمان الطبع لسرعة التعلم والاكتساب، يقول: " وليس من قال الشعر بقريحته وطبعه واستغنى بنفسه، كمن احتاج إلى غيره يطردُ شعره، ويحتذي مثاله، ولا يبلُغ معشاره" (الجاحظ، 1964م، 116: 2).

وقد أطال النقاد العرب الحديث عن هذا المقياس، وأكثروا من ترديده، وقياس الأدب على أساسه، " ولكنك في حاجة إلى الصبر والموازنة بين الأقوال حتى تصل إلى نتيجة أقرب ما تكون إلى الحق" (بدوي، د ت، 483).

"والجاحظ من أولئك الذين بحثوا في هذه المسألة، بل وضع لها أساسا متينا، وقال فيها القول الفصل، فقد حذر من التكلف بصفة عامة في صناعة الأدب، فيجب أن يكون الأديب مطبوعا في أدبه، خاليا من التشدق والتقعير والتعقيب والاستكراه" (عيد، 1993م، 178).

وكان الأصمعي يفضل النابغة الجعدي من أجل ذلك وكان يقول: " الحطيئة عبد لشعره، عاب شعره حين وجده كله متخيرا منتخبا مستويا، لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه" (الجاحظ، 1948م، 152: 1).

ويقول: " ومدار اللائمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف وبيانا يمازحه التزيّد" (الجاحظ، 1948م، 25: 1)، ويستشهد على ذم التكلف، والميل عن الطبع والسهولة، بما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا المعنى: " إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة، أحسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلي، وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة، الثرثارون المتشدقون المتفيهقون"، وقال: "إياي والتشادق" (الجاحظ، 1948م، 13: 2).

ومن خلال الحديث الذي استشهد به الجاحظ، يتضح أن النبي ﷺ، قد نهى المراء عن التزيد والتكلف في الحديث، ويوضح الجاحظ سبب نهي النبي عليه الصلاة والسلام، فيقول: " إنما عاب النبي ﷺ، المتشدقين والثرثارين، والذي يتخلل بلسانه كما تتخلل الباقرة بلسانها، والأعرابي المتشادق، وهو الذي يصنع بفكيه وشدقيه، ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر، فمن تكلف ذلك منهم فهو أعيب، والذم له ألزم" (الجاحظ، 1948م، 193: 1).

وعند حديث أبي عثمان عن فصاحة النبي عليه الصلاة والسلام، يذكر أنه عليه السلام قد نهى عن التكلف، وحث على الطبع والسهولة، فإن كلامه كان تطبيقا عمليا لذلك، يقول: " وأنا ذاكر بعد هذا، فنّا آخر من كلامه صلى الله عليه وسلم، وهو الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجل عن الصنّعة، ونزه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: "وما أنا من المتكلفين" (سورة ص، 86).

" فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التقعيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيّ، ورغب عن الهجين السّوقي، فلم ينطق إلا عن مرات حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذ الخطب الطوال بالكلام القصار، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالخلابة، ولا يستعمل المواربة، ولا يهمز ولا يلمز، ولا يبطئ ولا يعجل، ولا يسهب ولا يحصر، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعا، ولا أقصد لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيرا" (الجاحظ، 1948م، 10: 2).

وينبه الجاحظ بأن اللفظ لا يقع موقعه من الحسن، ولا يأخذ مكانه من القلب إلا إذا كان بعيدا عن التكلف: "... ومتى كان اللفظ أيضا كريما في نفسه، متخيرا من جنسه، وكان سليما من الفضول، بريئا من التعقيب، حبب إلى النفوس، واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول وهشت إليه الأسماع، وارتاحت له القلوب..." (الجاحظ، 1948، 52: 2).

ويقرر الجاحظ أنه: " ولم أجد في خطب السلف الطيّب والأعراب الأقحاح، ألفاظا مسخوطة، ولا معانيّ مدخولة، ولا طبعا رديئا، ولا قولا مستكرها، وأكثر ما تجد ذلك في خطب المولدين، شوفي خطب البلديّين المتكلفين، ومن أهل الصنعة المتأدّبين، وسواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب، أو كان من نتاج التحير والتفكير" (الجاحظ، 1948م، 52: 2).

ويقول أيضا: " ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كلّ شعر فيه الشاهد والمثل، ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتي لهم - لا يقفون إلاّ على الألفاظ المتخيرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة، والمخارج السهلة، والدّيباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكّن وعلى السبك الجيّد" (الجاحظ، 1948م، 14: 4)، ولذلك قيل: " من تطبّع بغير طبعه، نزعته العادة حتى تردّه إلى طبعه، كما أن الماء إذا أسخنته وتركته ساعة عاد إلى طبعه من البرودة، والشجرة المرة لو طلبتها بالعسل لا تثمر إلا مرا" (ابن عبد ربه، 1404هـ، 321: 2).

وخلاصة القول فيما سبق، أن الجاحظ يصل بنا إلى نتيجة مهمة وهي: أن العربي عامة يميل إلى الطبع والارتجال، أكثر من محبته للصنعة والزخرفة والعنت، وهذا راجع لطبيعة حياتهم في الجزيرة العربية، تلك الحياة السهلة الواضحة، وكأن وضوح الصحراء انعكس صفاء على نفسياتهم وأدبهم، "والأسلوب: هو الرجل كما يقال، ويندر من يشذ عن هذه القاعدة، ويميل إلى التكلف" (المصري، 1987م، 134).

ويوكد أبو عثمان كذلك، بغضه للصنعة والتكلف، ما دام الطبع يغني عن هذا التعب الذي لا يجدي، يقول: " فإن رأيي في هذا الضرب من اللفظ، أن أكون ما دمت في المعاني التي هي عبارتها، والعادة فيها، أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود، وأدع التكلف لما عسى ألا يسلس ولا يسهل إلا بعد الرياضة الطويلة" (الجاحظ، 1424هـ، 174: 3).

وبتأثير الفتوحات واختلاط العرب بأهل البلاد المفتوحة، في خارج جزيرتهم وداخلها، وقد تحولوا يتحضرون ويمصرون الأمصار، ويتخذون القصور، ونهض لهم الموالي بحياتهم المادية في جميع شئونها لا في المدن الممصرة فحسب مثل البصرة والكوفة، بل أيضًا في مدن الحجاز مثل مكة والمدينة، وكان مما نهضوا لهم به نهضة واسعة فن الغناء، إذا استحدثوا فيه نظرية جديدة؛ هي التي نقرؤها في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، حين يعيّن الرَّقيم الموسيقي الخاص بالصوت أو الأغنية، فيقول مثلًا: الغناء لمعبد، ولحنه من الثقيل الأول بالوسطى أو رمل بالسبَّابة في مجرى البنصر أو ثانٍ ثقيل بالوسطى والخنصر ونحو ذلك" (ضيف، 1426هـ، 32).

ب- **الدربة، بالضم:** " عادة وجرأة على الحرب وكل أمر، وقد درب بالشيء بكسر الراء إذا اعتاده وضرى به" (الحسيني، د ت، 402: 2).

والدربة أو المراس الأدبي، طور لا بد منه ليبلغ الأديب بموهبته حد التمكين من فنّه، وهي إحدى أهم مقومات الخطبة التي بينها الجاحظ، وهي صنو الطبع، أو هي عملية صقل له وإغناء لمادته، لذا نراها أحيانا بمعنى الطبع ومرادفا له.

يقول الجاحظ: " ثم أعلم – أبقاك الله- أن صاحب التشديق، والتقعير، والتعقيب، من الخطباء والبلغاء، مع سماحة التكلف، وشنعة التزيد، أعذر من عيي يتكلم الخطابة، ومن حصر يعترض لأهل الاعتبار والدربة" (الجاحظ، 1948م، 24: 1).

أما التدريب فمعناه " التلقين" و"التمرين" و"التدرج" " وجميعها مصطلحات تتناوب الدلالة على التأدب والتثقيف في مسائل اللغة والأدب " (عاصي، 1981م، 114).

يقول أبو عثمان: " القول في إنطاق الله عز وجل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام بالعربية المبينة على غير التلقين والتمرين وعلى غير التدريب والتدرج، وكيف صار عربيا أعجميّ الأبوين، وأوّل من عليه أن يقرّ بهذا القحطانيّ، فإنه لا بدّ من أن يكون له أب كان أوّل عربيّ من جميع بني آدم عليه السلام ولو لم يكن ذلك كذلك وكان لا يكون عربيّا حتى يكون أبوه عربيّا وكذلك أبوه وكذلك جدّه، كان ذلك موجبا لأن يكون نوح عليه السلام عربيّا، وكذلك آدم عليه السلام " (الجاحظ، 1948م، 193: 3).

ويشير الجاحظ إلى مسألة الدربة في حديثة عن لثغة واصل بن عطاء: " ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثّغ، وأنّ مخرج ذلك منه شنيع، وأنه إذ كان داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنّه لابدّ له من مقارعة الأبطال، ومن الخطب الطّوال وأنّ البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وأنّ حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة، كحاجته إلى الجزالة والفخامة، ، وأن ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب، وتثنى إليه الأعناق، وتزّين به المعاني..." (الجاحظ، 1984م، 30: 1).

وجاء كذلك الإشارة إلى الدربة والمرآن في كتابه الحيوان، عندما تكلم عن نوم الملوك: " وأمَّا ما ذكرتموه من نوم الملوك بالنَّهار وسهرهم بالليل، فإنّ الملوكَ لم تجهلْ فضلَ النوم بالليل والحركةِ بالنهار، ولكنَّ الملوك لكثرة أشغالها، فضلَت حوائِجها عن مقدار النهار، ولم يتّسع لها، فلما استعانَت بالليل ولم يكن لها بدٌّ من الخلوة بالتدبير

المكتوم والسرِّ المخزون وجمعت المقدارَ الفاضلَ عن اتِّسَاع النهار إلى المقدارِ الذي لا بدَّ للخلوة بالأسرار منه، أخذتْ من الليل صدراً صالحاً فلمَّا طال ذلك عليها أعانها المِران وخفَّ ذلك عليها بالدُّربة" (الجاحظ، 1424هـ، 188: 1).

ج- الرواية:

وهي المعرفة الضرورية للمتأدب، "وتعني: الاطلاع الواسع والإحاطة التامة باللغة وأحوالها ومعرفة أهلها من العرب" (المصري، 1987، 35).

يقول أبو عثمان: " ولم أرى غاية النحويّين إلا كلّ شعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأشعار؛ إلاّ كلّ شعر فيه غريب أو معنّى صعب يحتاج إلى الاستخراج، ولم أرى غاية رواة الأخبار؛ إلاّ كلّ شعر فيه الشاهد والمثل، ورأيت عامتهم - فقد طالت مشاهدتي لهم -، لا يقفون إلاّ على الألفاظ المتخيّرة، والمعاني المنتخبة، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السّهلة، والدّيباجة الكريمة، وعلى الطبع المتمكّن وعلى السّبك الجيّد، وعلى كلّ كلام له ماء ورونق، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم، وفتحت للسان باب البلاغة، ودلّت الأقلام على مدافن الألفاظ، وأشارت إلى حسان المعاني، ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتّاب أعمّ، وعلى ألسنة حذّاق الشّعراء أظهر" (الجاحظ، 1948م، 14: 4).

وهكذا حكم أبو عثمان على معاصريه من الرواة؛ بالتقلب في الميول والهوى بين نسيب الأعراب وأخبارهم، وبين نسيب معاصرهم العباس بن الأحنف، أو الاكتفاء ببعض النوادر والنتف من كل شيء، وأحيانا الاقتصار على ناحية معينة دون غيرها، مع أن الأمر يحتاج إلى التعمق والإحاطة باللغة وأهلها، ولم ير من جمع المعرفة التامة؛ إلا معاصرة خلف الأحمر، " فقد كان الرجل موسوعي المعرفة حسب شهادة أبي عثمان" (المصري، 1987م، 36).

ومع ذلك، فالجاحظ في كتاب الحيوان، بين أن هنالك حدا للإحاطة بالعلم، فقال: " ولستُ أدَّعي في شيء من هذه الأشكالِ، الإحاطة به والجمعَ لكل شيء فيه، ومن عَجَز عن نظم الكثير، وعن وضعِهِ في مواضعه، كان عن بُلوغ آخره وعن استخراج كل شيء فيه، أعجز والمتح أهونَ من الاستنباط، والحصْدَ أيسَرُ من الحرث" (الجاحظ، 1424هـ، 199: 5).

وقد وضع الجاحظ للرواية شروطا يندر أن تجتمع إلا عند العظماء منهم، وقد طبقها أبو عثمان في كتبه، منها:

- **التواضع**: والبعد عن الغرور، والإحساس الصادق بأن العالم الراوية ما يزال بحاجه إلى المزيد من المعلومات والاطلاع، وهكذا يندفع إلى متابعة البحث، وملاحقة ما يجد من قضايا العلم والفكر ضمن اختصاصه، حتى يجد لذة في متابعة ما يعسر عليه فهمه وحله، " ولا يتكبر عندما يجد نفسه بحاجة إلى عامل بسيط في مهنة كالحدادة مثلا" (المصري، 1987م، 301).

ومن ذلك ما جاء في كتاب الحيوان، يقول أبو عثمان: "وانشدني يحيى الأغر: (كَضَرْبِ القُيونِ سَبِيك الحدي ** دِ يومَ الجنائب ضرباً وَكيدا)، فلم أعرفه فسألتُ بعضَ الصَّياقلة فقال: نعم هذا بَيّنٌ معروف، إذا أَخْرَجْنا الحديدةَ من الكِيرِ في يومِ شَمَال، واحتاجت في القطْع إلى مائة ضربةٍ، احتاجَت في قطْعها يومَ الجَنُوب إلى أكثر من ذلك، وإلى أشدّ من ذلك الضَّرب، لأَنّ الشمالَ يُيَبِّسُ ويقصِف والجنوب يرطِّب ويلدِّن" (الجاحظ، 1424هـ، 407: 4).

وعالم عظيم مثل الجاحظ يختلط بالناس، ومن جميع الطبقات ويراقب كل المهنيين، ويدقق في تصرفات أبناء مجتمعه؛ لا بد أن تكون حصيلة خبراته في الحياة العملية عظيمة جدا.

- **الإنصاف**: وهي الفضيلة الثانية التي لا بد منها للنقد وأهله، حتى يأخذ النقد دوره في خدمة الأدب، وتوجيه الذوق العام نحو الحق والتقدم، وتنبيه الأدباء والجماهير إلى مواطن الخير، والدعوة بالحق، ويضرب لنا أبو عثمان العديد من الأمثلة لإنصافه شخصيا لبعض معاصريه من الأدباء والشعراء، ومنها:

تعجبه بإنصاف الكميت الشاعر الشيعي لشاعر من الخوارج وهو الطرماح، ويسجل الكميت للكميت هذه النظرة المنصفة معجبا بها، يقول: " قال محمد بن سهل راوية الكميت: أنشدت الكميت قول الطرماح:

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت... عرى المجد واسترخى عنان القصائد.

قال: فقال الكميت إي والله، وعنان الخطابة والرّواية، قال أبو عثمان الجاحظ: ولم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرمّاح، وكان الكميت عدنانيا عصبيّا، وكان الطرمّاح قحطانيّا عصبيّا، وكان الكميت شيعيّا من الغالية، وكان الطرمّاح خارجيّا من الصّفرية، وكان الكميت يتعصّب لأهل الكوفة، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام، وبينهما مع ذلك من الخاصّة والمخالطة، ما لم يكن بين نفسين قطّ، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض، ولا شيء مما تدعو هذه الخصال إليه" (الجاحظ، 1948م، 51: 1).

ثم يوضح لنا الجاحظ مثلا آخر، فيقول: " ولم ير الناس مثلهما، إلا ما ذكروا من حال عبد الله بن زيد الإباضي، وهشام بن الحكم الرافضي، فإنهما صارا إلى المشاركة بعد الخلطة والمصاحبة" (الجاحظ، 1948م، 51: 1).

وكان أبو عثمان يستنكر موقف علماء اللغة من شعر المولدين، لكنه عندما رأى إنصاف الأصمعي للطرماح، سجل له هذه الوقفة المخلصة، وأعجب بهذا الموقف النبيل، " وقال الرماح بن ميادة: وكان الأصمعي يقول: ختم الشعر بالرمّاح، وأظن النابغة أحد عمومته (الجاحظ، 1948م، 234: 3):

ألا ربّ خمّار طرقت بسدفة ... من الليل مرتادا لندماني الخمرا

فأنهلته خمرا وأحلف أنها ... طلاء حلال كي يحملني الوزرا.

- **الطبيعة المواتية للأدب**: وتعني بها الحسن الجمالي، والقدرة على تذوق الأدب وتحسس جماله، والجاحظ في أدبه يميل إلى التسامح مع الأدباء عامة، والشعراء خاصة، ما دامت الجمالية الفنية قد تحققت لديهم، ومثال ذلك:

"وقال عبدُ اللّه بن الحارث وكتب بها إلى عبدِ الملكِ بن مرْوان حينَ فارقَ مُصعبًا:

بأيّ بلاءٍ أم بأيَّةِ عِلَّةٍ ... يُقدَّم قبلي مُسِلمٌ والمهلَّبُ

وَيُدعَى ابنُ منجوفٍ أمامي كأنَّه ... خَصِيٌّ دنا للماءِ من غيرِ مَشْرَبِ.

فقلت ليونس: أقوى، فقال: الإقواءُ أحسَنُ من هذا" (الجاحظ، 1978، 34: 1).

- **الفصاحة**: يتخذ مفهوم الفصاحة في لغة الجاحظ وفكره الأدبي معنيين أثنين:

الأول يرتبط بسلامة النطق، مما يشوب أصوات الحروف ويعطل مخارجها الصحيحة، ويدل على ذلك قول أبو عثمان: "ومع ما أعطى الله –تبارك وتعالى- موسى عليه السلام من الحجة البالغة، ومن العلامات الظاهرة، والبراهين الواضحة، إلى أن حل الله تلك العقدة وأطلق تلك الحبسة، وأسقط تلك المحنة، ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقة..." (الجاحظ، 1978، 30: 1).

والثاني يرتبط بنقاء اللغة، وخلوها من المفردات والصيغ الشاذة عن أصالة اللسان القرشي، وقواعد لغة القرآن كأنموذج أرفع لتك الأصالة، يقول الجاحظ: " وأهل الامصار؛ إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظ أهل الكوفة، والبصرة، والشام، ومصر" (الجاحظ، 1978، 33: 1).

" إن مفهوم الفصاحة من هذه الناحية هو إذا، عند الجاحظ، وفي عصره، عنصر أساسي من عناصر البيان باللغة، يقتصر على سلامة النطق بألفاظها، من حيث مخارج الحروف من جهة، ويقتصر من جهة أخرى، على سلامة اللغة من أي لفظ دخيل على قاموس الفصحى، كما أثرت عن رفيع الموروث الأدبي بلغة قريش عامة، وعن الإرث القرآني بصورة خاصة" (عاصي، 1981م، 53).

- **تخير اللفظ**: وهذه قضة أدبية ما زالت مطروحة منذ وجد الأدب وستبقى كذلك ما دام الأدب موجودا، ولا شك أن هذا يرجع إلى اختلاف شخصيات الأدباء من جهة والنقاد أو جمهور المتأدبين من جهة أخرى، أذ نرى أن فريقا من الناس، يحب الزخرفة والتزيين والمبالغة في الترتيب، والدقة في التنظيم تسري في كل شؤون حياته العامة والخاصة، وتنوع من هذا النمط من الناس، أن يفضّل الزخرفة اللفظية، ويقدّم اللفظ، ويدعو للعناية به، وتنقيح العبارة؛ "لأنه يرى في الأدب صورة لأناقته الشخصية، أو يريد أن يرى من خلاله صورة أنيقة للكاتب، وهو لهذا السبب يؤكد أهمية السبك الجيد، والمبالغة في انتقاء الكلمات المناسبة للموضوع الأدبي، خطبة كان أو شعرا أو مقامة" (المصري، 1987م، 81)، وفي ذلك قيل: " النثر الأدبي، وهو أشد أنواع النثر حاجة غلى تخير اللفظ، والتأنق في النظم، حتى يخرج الكلام مشرقًا منيرًا، لطيف الموقع في النفوس، حلوة النبرة في الآذان؛ لأن للموسيقى اللفظية أثرًا كبيرًا في الأذهان" (الدسوقي، 2000، 260).

وقد عنى الجاحظ بهذه القضية عناية فائقة، فاللفظ المفرد عنده يعد بمثابة اللبنة التي يقام منها البناء، وعلى قدر ما فيها من حسن يكون البناء رائقا، " فإذا كانت الكلمة حسنة استمتعنا بها على قدر ما فيها من الحسن..." (الجاحظ، 1948م، 50: 1).

ولما كانت الخطابة هي إحدى فنون الأدب العربي التي شغل بها الجاحظ في كتابه، ودافع عنها ضد الشعوبيين، نجده ينبه الخطباء إلى اختيار ألفاظهم وانتقائها، يقول " رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدّربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيّر الألفاظ..." (الجاحظ، 1948م، 50: 1).

وتحدث أبو عثمان عن اللفظ المفرد وما يطرأ عليه من عيوب تخل بفصاحته ويجدر بالأديب أن يطرحه من أدبه، ومن هذه العيوب:

- **غرابة الكلمة**: وهي من أهم العيوب التي تلحق اللفظ المفرد، ونبه إليها أبو عثمان في البيان والتبيين، "وهي كون الكلمة وحشية غريبة، لا يعرف معناها إلا بالشرح والبحث والتفسير" (الكوفي، 1998م، 349: 1).

ومن تنبيهات الجاحظ في هذا السياق فيما نقله عن بشر بن المعتمر إلى هذا النوع من العيب اللاحق باللفظ، محذرا من الوقوع فيه، فقد جاء في هذه الصحيفة: "... وإياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك..." (الجاحظ، 1948م، 107: 1).

ثم يعلق على هذه العبارة بقوله: " أما أنا، فلم أرقط أمثل طريقة في البلاغة من الكتّاب، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا..." (الجاحظ، 1948م، 107: 1).

والتوعر في الأمر هو التعسر، والجاحظ يصور استعماله بصورة من يركب طريقا وعرا خشنا، لا يصل فيه السالك إلى مراده بسهولة ويسر، فاستعمل اللفظة الغريبة وما فيها من تعمية وابهام على السامع بحاجة إلى إيضاح، حيث كان فهم المراد منها ليس سهلا ميسورا، وتسميته وحشيا لأن النفوس تنفر منه كما تنفر من الوحش النافر، " أو لأن اللفظ نفسه ينفر من الكلام كالوحش النافر الذي لا يستقر في مكان" (عيد، 2005م، 174).

ويروي أبو عثمان طائفة من الكلام حوت ألفاظ غريبة، جعلت هذا الكلام ساقطا عن دائرة الفصاحة، فمما يرويه من ذلك: " أن امرأة خاصمت زوجها إلى يحيى بن يعمر فانتهرها مرارا، فقال له يحيى: إن سألتك ثمن شكرها وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها" (الجاحظ، 1948م، 261: 1).

وقبل أن يعلق على هذا النص، بما يعبر عن استهجانه واستقباحه لهذا الغريب واستعماله، يرى أن القارئ بحاجة إلى تفسير لهذا الغريب، فيفسر له هذه الألفاظ، حتى لا يكد خاطره، ويعيى ذهنه، " فالضهل: التقليل، والشكر: الفرج، والشبر: النكاح، وتطلها: تذهب بحقها، يقال: دم مطول، ويقال: بئر ضهول: أي قليلة الماء" (الجاحظ، 1948م، 261: 1).

وبعد تفسير هذه المفردات، يعلق بقوله: " فإن كانوا إنما رووا هذا الكلام؛ لأنه يدلّ على فصاحة، فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة، وإن كانوا إنما دوّنوه في الكتب، وتذاكروه في المجالس لأنه غريب، فأبيات من شعر العجّاج أو شعر الطّرمّاح وأشعار هذيل، تأتي لهم مع حسن الرّصف على أكثر من ذلك، ولو خاطب بقوله: " إن سألتك ثمن شكرها، وشبرك أنشأت تطلها وتضهلها الأصمعيّ، لظننت أنه سيجهل بعض ذلك، فهذا ليس من أخلاق الكتاب، ولا من آدابهم" (الجاحظ، 1948م، 261: 1).

وفي هذا التعليق، ندرك إلى أي مدى وصل عمق فهمه لهذا العيب، وما يحدثه من أثر سيء على فصاحة الألفاظ المفردة، وهذا يؤكد أن اللفظ الغريب بعيد كل البعد عن صفة الفصاحة، ولذا فإن الكّتاب يتحاشون هذه الألفاظ، فهي ليست من أخلاقهم ولا من آدابهم.

ومما يرويه عن أبي الحسن في قبح الغريب واستهجانه أنه: " كان غلام يقعر في كلامه، فأتى أبا الأسود الدؤلي يلتمس بعض ما عنده، فقال له أبو الأسود: ما فعل أبوك؟ قال: أخذته الحمّى فطبخته طبخا، وفنختته فنخا، وفضختته فضخا، فتركته فرخا". فنخته: أضعفته. الفنيخ: الرخو الضعيف، وفضخته: دقته، فقال أبو الأسود: " فما فعلت امرأته التي كانت تهاره وتشارّه وتجارّه وتزارّه"؟ قال: " طلّقها وتزوّجت غيره، فرضيت وحظيت وبظيت". قال أبو الأسود: قد عرفنا رضيت وحظيت، فما بظيت؟ قال: حرف من الغريب لم يبلغك. قال أبو الأسود: يا بني كل كلمة لا يعرفها عمّك فاسترها كما تستر السّنور جعرها"، تزاره: تعاضه. الزر: العض. وحظيت: من الحظوة. وبظيت: إتباع لحظيت" (الجاحظ، 1948م، 261: 1).

وهو بذلك يعبر عن قبح هذا العيب، حيث صرح أن مثل هذه الألفاظ ينغلق معناها حتى على عالم، كأبي الأسود الدؤلي أو الأصمعي، "وأن في قول أبي الأسود للغلام: كل كلمة لا يعرفها عمك فاسترها، يريد أن كل كلمة لا يعرفها عمك، فهي داخلة في هذا التوعر الوحشي، ولم يفت الجاحظ توضيح معاني تلك الألفاظ الغريبة، ففسرها وأزال ابهامها" (عيد، 2005م، 176).

ولا يكتفي الجاحظ بإعلان سخطه على هذا المسلك، حتى يفسر تلك الألفاظ الغريبة، تأكيدا لاستقباح هذا المسلك، وتخفيفا على السامع من عناء التفتيش والتنقيب، ويضرب المثال لاستعمال الغريب وقبحه في الكلام بأبي علقمة، وهو نحوي كان يتقعر في كلامه، ويتشادق بالغريب، فيروى: " قال أبو الحسن: مرّ أبو علقمة النحويّ ببعض طرق البصرة، وهاجت به مرّة، فوثب عليه قوم منهم، أقبلوا يعضّون إبهامه ويؤذنون في أذنه، فأفلت من أيديهم فقال: " مالكم تتكأكئون عليّ، كما تكأكئون على ذي جنّة، افرنقعوا عنّي، قال: دعوه، فإنّ شيطانه يتكلم بالهنديّة، وقال أبو الحسن: هاج بأبي علقمة الدم فأتوه بحجّام، فقال للحجّام: اشدد قصب الملازم، وأرهف ظبات المشارط، وأسرع الوضع وعجّل النّزع، وليكن شرطك وخزا، ومصّك نهزا، ولا تكرهن أبيّا، ولا تردنّ أتيّا، فوضع الحجام محاجمه في جونته ثم مضى، " فحديث أبي علقمة فيه غريب، وفيه أنه لو كان حجامًا مرّة ما زاد على ما قال" (الجاحظ، 1948م، 262: 1).

وأمثله الجاحظ في هذا المجال كثيره، ويبدو أن اكثاره من الشواهد، ومقته لهذا العيب جعله لا يعلق على الكثير منها، ولا يوضح ما فيها من غريب، كشأنه في بعض النصوص، ومما تجدر الإشارة إليه، أن أبو عثمان لم تفته أن يعلل لقبح هذا العيب، مما يدل على ادراكه الناضج لما يخل بفصاحة الألفاظ المفردة، فيقرر أن: " اللفظ الهجين الرديّ، والمستكره الغبيّ، أعلق باللّسان، وآلف للسمع، وأشدّ التحاما بالقلب، من اللفظ الهجين الرديّ، والمستكره الغبيّ، أعلق باللّسان، وآلف للسمع، وأشدّ التحامّا بالقلب من اللفظ الشريف، والمعنى الرّفيع الكريم..." (الجاحظ، 1948م، 76: 1).

وهو بهذا يفطن إلى دقيقة مهمة، ونتيجة سبق بها علماء البلاغة، في تعليله لهذا العيب حيث قرر أن اللسان يتعلق باللفظ القبيح، ويكون من الصعب عليه التخلص منه، كما أن الأذن تعيه، والقلب يحفظه أكثر من اللفظ السليم البريء من هذا العيب (عيد، 2005م، 176).

وهو رأي ابن عبد ربه، يقول: " إياك والتوعّر، فإنّ التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، ومن أراغ معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما، فإنّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما؛ فكن في ثلاثة منازل: فأوّل ذلك أن يكون لفظك رشيقا عذبا، أو فخما سهلا؛ ويكون معناك ظاهرا مكشوفا، وقريبا معروفا" (ابن عبد ربه، 1404هـ، 147: 4).

- **تنافر الحروف**: وهي من العيوب التي تطرأ على الكلمة المفردة، فتخرجها عن دائرة الفصاحة، وهو كون الكلمة صعبة النطق على اللسان، حتى يكاد أن يتعثر بها، غير خفيفة على الآذان، فتكد لسان الناطق، وتنفر منها أذن السامع (السيوطي، 1998م، 147: 1).

وقد نبه الجاحظ إلى هذا العيب، وأشار إليه، وإن لم يصرح بهذا الاسم – أي تنافر الحروف- وذلك في معرض حديثه عن هذا العيب، إلا أنه عطفه وقرنه بتنافر الكلمات- كما سيأتي بعد قليل-، فأوضح أن اللفظ ينبغي " أن يكون خفيفا على اللسان سهلا، وقد نقل عن بشر بن المعتمر – في صحيفته-، أن المنازل التي يجب أن ينزلها الأدباء والكتّاب ثلاث منازل، وأولى هذه المنازل أن يكون اللفظ رشيقا عذبا وفخما سهلا " (الجاحظ، 1948م، 107: 1).

وإذا كان اقتران الألفاظ بعضها ببعض ينبغي أن يكون على نسق خاص، وبتأليف منسجم؛ فإن اقتران الحروف في الكلمة، ينبغي أيضا أن يكون مما يؤدي إلى انسجام في الكلمة، بحيث تبدو حروفها متآلفة متآخية، ليس بينهما تنافر، فلا يليق أن نؤلف الكلمة من حروف متقاربة المخرج؛ فيؤدي ذلك إلى تنافرها، وثقلها على اللسان وتعسره عند أدائها.

وقد أوضح ذلك صريحا في قوله: " فأمّا اقتران الحروف؛ فإنّ الجيم لا تقارن الظاء، ولا القاف، ولا الطاء، ولا الغين، بتقديم ولا بتأخير، والزّاي لا تقارن الظّاء، ولا السّين، ولا الضاد، ولا الذال، بتقديم ولا تأخير، وهذا باب كبير، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدلّ به على الغاية التي إليها يجري" (الجاحظ، 1948م، 66: 1).

وقد كان الجاحظ – بهذا التنبيه- صاحب رأي أصيل أذاعه الكثيرون ممن جاءوا بعده، كابن سنان الخفاجي، حيث ذهب إلى أن قرب مخارج الحروف في الكلمة مؤد إلى تنافرها وثقلها واشترط أن تتألف الكلمة من حروف متباعدة المخارج، وعلل ذلك بأن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر (عيد، 2005م، 185).

ويقول الحموي في شأن تنافر الحروف: " فصاحة المفرد خلوصه من تنافر الحروف، والفصاحة أعم من البلاغة؛ لأن الفصاحة تكون صفة للكلمة والكلام، يقال: كلمة فصيحة وكلام فصيح. والبلاغة لا يوصف بها إلا الكلام" (الحموي، 2004م، 404: 2).

والبلاغة هي أن يبلغ المتكلم بعبارته كنه مراده، مع إيجاز بلا إخلال، وإطالة من غير إملال. والفصاحة خلوص الكلام من التعقيد.

- **مخالفة القياس:** وهو كون الكلمة مخالفة للاستعمال الوارد عن العرب، وقد ضبطه علم الصرف، "وفطن أبو عثمان إلى هذا العيب، ونبه إليه، وعد الكلمة إذا جاءت مخالفة لما ورد عن العرب عدت ساقطة بسبب هذه المخالفة، وخرجت عن الفصاحة، ودخلت في دائرة العيب" (عيد، 2005م، 186).

وهناك من جاء بقول مخالف للمعنى المراد بمخالفة القياس، يقول: " وقد حمله بعضهم على القياس الصرفي، وهو خطأ؛ لأن مخالفة القياس الصرفي لا تخل دائما بالفصاحة" (الصعيدي، 2005م، 15: 1).

ومما يرويه عن المدائني، أنه: " قعد قدّام زياد رجل ضائعي -من قرية باليمن، يقال لها "ضباع"، وزياد يبني داره، فقال له: أيها الأمير، لو كنت عملت باب مشرقها قبل مغربها، وباب مغربها من قبل مشرقها! فقال: أنّى لك هذه الفصاحة؟ قال: إنها ليست من كتاب ولا حساب، ولكنها من "ذكاوة" العقل، فقال: ويلك، الثاني شرّ" (الجاحظ، 1948م، 159: 3).

فكلمة " ذكاوة" التي جاءت في كلام الضائعي لم ترد بها استعمال عربي يصححها، وانما الوارد" ذكاء"، وقد ضبط القانون الصرفي ذلك بقاعدة وهي: " إذا وقعت الواو أو الياء متطرفة بعد ألف زائدة قلبت همزة، نحو: كساء، وسماء، وأيضا ذكاء" (النجار، د ت، 390: 2).

ومن خلال هذا العرض لفصاحة الكلمة المفردة عند الجاحظ، نجده قد لفت أنظار الكاتبين والباحثين من علماء البلاغة المتأخرين من علماء البلاغة المتأخرين، إلى العيوب التي تخل بفصاحتها، وأن المتأخرين وجدوا أصول ضوابطهم في هذا الباب عنده، بل أن الضابط الذي وضعه المتأخرون، لا يزيد عن الضابط الذي وجدناه عند الجاحظ، وهو أن فصاحة المفرد عبارة عن خلوه من عيوب ثلاثة: الغرابة والاستكراه، وعدم التئام حروفه وثقله، ومخالفته للاستعمال الوارد عند العرب (عيد، 2005م، 186).

خاتمة

تبين لنا هذه الدراسة أن النقد الأدبي، قد قطع شوطا مهما في مسيرته التاريخية، لا سيما في القرن الثاني والثالث الهجريين، على يد أبي عثمان عمرو بن بحر، الذي تناول الكثير من القضايا النقدية، حيث بنى لنا مخططا يصور مسيرة النقد الأدبي منذ العصر الجاهلي، إلى القرن الثالث الهجري، وذلك من خلال رصده لآراء كوكبة من النقاد والأدباء والشعراء الذين كان لهم الدور الأكبر في ترسيخ مبادئ هذا النقد الأدبي.

ونحن من خلال هذه الدراسة حاولنا أن نلقي الضوء على جانب مهم من جوانب النقد الأدبي عند الجاحظ، من خلال الكشف عن معايير نقد الجاحظ للخطابة العربية، من خلال تتبعنا لهذه الآراء التي أوردها في مؤلفاته، لا يسعنا إلا القول: "هذا البحث يظهر جانبا جديدا عظيما قدمه الجاحظ للنقد الأدبي"، ومن أهم النتائج:

- الخطابة هي فن نثري قولي، له قواعد وقوانين واصول، غايته التأثير في الجمهور المستمع، وإقناعهم بالحجة والبرهان.
- للخطابة تأثير كبير في الإقناع، واستمالة الخواطر وتوجيهها، وهي بذلك توازي عمل الفصاحة والبلاغة التي تعين الخطيب على تركيب المفردات والجمل، وحسن التعبير.
- تفردت الخطابة بخصائص تميزها عن فنون النثر الأخرى، فهي تتناول المسائل الجادة والواقعية، وتقوم على الحقائق الملموسة واستعمال الدليل، والاستعانة بالحجة والمنطق في تركيبها، وعنصر الإقناع لفكرة الخطيب والاستمالة إليه.

- يعدّ الجاحظ من أوائل الأدباء الذين أرّخو لكلمة السجع بلاغيا، والسجع المحمود عنده ما كان لإقامة الوزن، وحلاوة الصوت، وجمال الأداء، أما إذا أريد به إبطال حق أو هتك فضيلة أو انتصار لباطل، كما في سجع الكهان فذلك عنده مذموم مرفوض.
- أبرز مقومات الخطابة عند الجاحظ، والأسس التي يرتكز عليها هذا الفن خمسة أشياء، هي: (الطبع – الرواية- الفصاحة- تخير اللفظ).
- يقرر الجاحظ أن العربي عامة يميل إلى الطبع والارتجال أكثر من محبته للصنعة والزخرفة والعنت، ويرجع ذلك لطبيعة حياتهم في الجزيرة العربية، وهي الحياة التي وصفها بالسهلة الواضحة.
- الفصاحة عند الجاحظ عنصر أساسيا من عناصر البيان باللغة، يهتم بسلامة اللغة من أي لفظ دخيل على قاموس الفصحى.
- اللفظ عند الجاحظ بمثابة اللبنة التي يقوم منها البناء، وعلى قدر ما فيها من حسن يكون البناء.
- فصاحة المفرد عبارة عن خلوه من عيوب ثلاثة: الغرابة، والاستكراه، وعدم التئام حروفه وثقله، ومخالفته للاستعمال المشهور عند العرب.

توصيات:

- التوسع من قبل الباحثين في دراسة خطب العرب، ومحاولة تحليلها وإبراز الخصائص الفنية فيها0
- تطعيم المناهج الدراسية في مراحل التعليم المختلفة، بمادة الخطابة وما تمثله من أهمية بالغة.
- تدريب الأبناء على ارتجال الخطابة، وتقديمهم في منابر الجمع، وتصدرهم المحافل بكافة أنواعها.

المصادر والمراجع:

- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي (المتوفى: 321هـ). (1987م). جمهرة اللغة. (ط1). تحقيق: رمزي منير بعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت.
- ابن رشيق، أبي علي بن رشيق القيرواني الأزدي (390م-456هـ). (1401هـ 1981م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. (ط5). تحقيق: محمد ومحي الدين عبد الحميد. دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة. بيروت.
- أبو البقاء، أيوب بن موسى الحسيني الكوفي. (1419هـ- 1998م). الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية). تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.
- الأندلسي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه. (1404هـ). العقد الفريد. (ط2). دار الكتب العلمية. بيروت.
- بدوي، أحمد أحمد. أسس النقد الأدبي عند العرب. دار نهضة مصر للطبع والنشر.
- الجاحظ، أبو عثمان بحر بن محبوب الكناني (255هـ). (1384هـ- 1964م). الرسائل. تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. مصر.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي. 1424هـ. الحيوان. (ط2). دار الكتب العلمية. بيروت.
- الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر. (1948م). البيان والتبيين. (ط2). مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير. القاهرة.
- جبر، جميل. (2008م). الجاحظ في حياته وأدبه وفكره. دار الكتب المصري اللبناني للطباعة والنشر.

- الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الأزراري. (2004م). خزانة الأدب وغاية الأرب. تحقيق: عصام شيقو. (ط12). دار ومكتبة الهلال. بيروت. دار البحار. بيروت.
- خفاجي، محمد عبد المنعم. (1982م). أبو عثمان الجاحظ. دار الكتاب اللبناني، بيروت. لبنان.
- الزَّبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس. دار الهداية.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (1998م). المزهر في علوم اللغة وأنواعها. (ط1). تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.
- الصعيدي، عبدالعال. (1426هـ-2005م). بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. (ط17). مكتبة الآداب. مصر.
- ضيف، شوقي. (1426هـ). الفن ومذاهبه في الشعر العربي. (ط12). دار المعارف. مصر.
- عاصي، ميشال. (1981م). مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ. (ط2). مؤسسة نوفل. بيروت. لبنان.
- عمر، الدسوقي. (2000م). في الأدب الحديث. دار الفكر العربي. لبنان.
- عيد، فوزي السيد عبد ربه. (1993م). المقاييس البلاغية عند الجاح في البيان والتبيين. دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- عيد، فوزي السيد عبد ربه. (2005م). المقاييس البلاغية عند الجاحظ في البيان والتبيين. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة.
- المصري، محمد عبد المغني. (1407هـ- 1987م). نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في النقد الأدبي. (ط1). دار مجدلاوي. عمان. الأردن.
- النجار، محمد عبد العزيز. منار السالك إلى أوضح المسالك. مطبعة الفجالة الجديدة. القاهرة.
- الواعي، توفيق. (1420هـ .1999م). الخطابة وإعداد الخطيب. (ط3). دار اليقين. مصر. المنصورة.